المهارة اللغوية في التواصل

لست أريد لهذا البحث أن يكون بحثاً نظرياً صرفاً؛ يكتفي بالوصف والتنظير والتخطيط، ولكني أريد له أن يُتبع الوصف بالتطبيق، والتفكير النظري بالحديث عن التنفيذ العملي. إن الكتابة عن المهارة اللغوية في ضوء مهمتها التواصلية لابّد أن تكون شديدة الصلة بالواقعية أي بالناحية العملية التي تتبع الفكرة بالعمل أو تلحق العمل بالفكرة.

وأبدأ ببيان المراد من العنوان، وهو يضمّ المهارة واللغة والتواصل، فما المهارة؟ وعن أي لغة نتحدث؟ وماذا تعني بالتواصل؟

أما المهارة فهي الحذق والإتقان، يقال: مَهر الشيء، ومهر فيه، ومهر به. والماهر هو من أتقن ما يصنعه حتى إذا مهر فيه أصبح صنعه عادة عنده، أي هو الصانع الذي يأتي بالشيء متقناً جيداً دون أن يتكلّف ذلك، ودون أن يجد في القيام به مشقّة عليه. الماهر هو من تعوّد على القيام بالعمل دون التفكير المجهد فيه أو دون بذل الجهد والمشقّة، أي إن الإتقان أصبح عنده عادة! إن الماهر هو الذي تمكّن في فنّه، وأن تتمكّن في الشيء يعني أن يصبح الشيء سهلاً هيناً عليك، أن يصبح ملك يمينك وطوع بنانك، وأن يخرج أو يصدر عنك، أو يأتي على يدك كما يخرج النفَس لا كلفة ولا مشقّة فيه. وخلاصة ما سبق بإيجاز أن نقول: المهارة إتقان بلا مشقّة.

وأما اللغة فلست أريد الوقوف عند ما ذكر لها من تعريفات وحدود نظرية لأنها سواء أكانت رمزية إشارية، أم مكتوبة مرئية ومقروءة، أم منطوقة مسموعة، فالغرض منها في إطار عنوان البحث هو التواصل.

واللغة أيا كانت، إشارة أو كلمة، مكتوبة أو مسموعة، هي الجسر الواصل بين المتكلم والمخاطب، أي بين المرسل والمتلقي، بل لو انطوى أحدنا على نفسه وتابع ما يفكّر فيه لوجد اللغة أداة حديثه إلى نفسه، أي أن اللغة هي أداة تفكيرنا الصامت كما هي أداة أو صوت فكرنا الناطق. وتبقى اللغة حبيسة النفس ما دام الإنسان يفكّر أو يتواصل مع نفسه! فإذا أراد أن ينتقل ليتواصل مع غيره، أي مع الآخر، فستكون اللغة هي أول خطوات انطلاقة الأنا من فرديّتها لاتصالها بالآخر..، هي الطريق الواصلة بين المرسل والمتلقي، واللغة ليست في تحقيق هذه الصلة أكثر من منظومة صوتية ذات أنساق اصطلح القوم أو الناطقون بها على ألفاظها ومعانيها. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أننا وصفنا اللغة هنا بالصوتيّة لأننا نريد أن نخصّها بالحديث بوصفها (كلاماً) يتواصل به الناس كل الناس.

وكون اللغة كلاماً أي أصواتاً يشمل اللفظ الشفهي في المحادثات، ويشمل القراءة التي تتطلب الفهم الشّديد لما يُقرأ أو يسمع، وتشمل التعبير الذي يتطلّب النطق السليم للحروف والكلمات والتراكيب، ولكل منها صفاته وشروط نطقه. وبذلك تكون المهارة اللغوية شاملة لكل ما سبق، دالّة على الحذق في اللغة، نطقاً في الحديث أو

الكلام، وسلامة في القراءة، وسداداً في الفهم لما يُسمع أو يقرأ، وصحّة في التعبير عن المراد. وهي الأمور التي يدعو الاجتماع البشري إلى الحاجة إليها.

ولما كانت اللغة منظومة قائمة أصلاً على نظام يحكم بناء مفرداتها وصيغ ألفاظها وقواعد تراكيبها مما يعرف بين العلوم بالصرف والنحو، فإنه ينبغي لنا أن نبين هنا أن اللغة التي يحتاج إليها اجتماع البشري هي تلك التي ينطق بها اللسان أو يكتب بها القلم دون كبير عناية بما وراء ذلك من علوم وقواعد. إن التواصل الاجتماعي يحتاج إلى اللغة نفسها لا إلى علومها! وهذا يعني أن المهارة في التواصل اللغوي، وهي التي نسعى إلى بلوغها، ليست بالعناية في علوم اللغة، بل يعني أن اهتمامنا يجب أن ينصرف إلى اللغة التي هي ملكة نفسيّة أو عادة لسانية وهو شيء آخر غير اهتمامنا بعلوم اللغة التي يأخذ تعليمها كل جهودنا في المدارس والجامعات. وإنه لفرق كبير بين من يتقن اللغة بامتلاك ملكتها وبين من يتقن اللغة! ورحم الله ابن خلدون الذي فرّق بين معرفة قوانين اللغة، وهي صنعة مكتسبة، وبين معرفة اللغة وهي ملكة! إنه الفرق بين من يعرف صناعة من الصناعات معرفة نظرية وعلمية ولا يعرفها عملاً ولا تطبيقاً، وأذكر أنني كتبت منذ أربعين سنة أن المشكلة اللغوية ليس مفتاحها بأيدي النحويين! وبيّنت أن الذين بحّت أصواتهم بالشكوى من ضعف المستوى اللغوي يخطئون الطريق حين يبحثون في حلّ المشكلة على أنها في مناهج النحو، ويخطئون في حكمهم حين يهاجمون النحاة ويتهمونهم بكونهم السبب في ذلك الضعف.

إن آلاف الطلاب يتعلمون القواعد النحوية، ويحققون النجاح في امتحاناتها، وقلّ منهم بل ندر من يملك لسانه أو يحسن الحديث بعربيّة واضحة صحيحة!

إن الجامعات ميادين لتعليم العلم، وللتدريب على البحث العلمي، ولكنها لم تنجح في إكساب الطلاب المهارات اللغوية!

إن تعليمنا في المدارس والجامعات لا يهتم بالمهارات اللغوية الاهتمام الكافي وإنما يهتم بالمهارات العلمية الخاصة بعلوم اللغة لا باللغة نفسها، ووسيلة التواصل هي اللغة نفسها وليس نحوها أو صرفها أو بلاغتها، وإن كانت هذه كلها روافد يفيد منها صاحب اللغة في تحسين لغته، ولكنها ليست هي اللغة أولاً، وليست هي التي توجد اللغة ثانياً، إنها تأتي في مرحلة تالية لاكتساب اللغة، وعند ذلك تكون مفيدة لرفد اللغة أو ترميمها أو تحسينها وتجويدها. وليست تلك العلوم هي الوسيلة إلى ممارسة اللغة والتواصل بها.

إن المهارة اللغوية حاجة لابدّ منها في كل اجتماع بشري، إنها تبدأ منذ أن يكون مع الإنسان إنسان آخر، لذلك ذكرت في القرآن الكريم بعد خلق الإنسان مباشرة فقال تعالى ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾ فلا يتحقق للإنسان اجتماع إلا باللغة التي هي وسيلة إلى التواصل.

وأما التواصل فهو ضدّ التقاطع، نقول: واصله وصالاً ومواصلة وتواصلاً، أي واصل كل منهما الآخر، فصيغة التواصل ببنائها تدلّ على التشارك وعلى أن فعلها لا يصدر من فاعل واحد، إنها صيغة اشتراك وبنية اجتماع. والتواصل اللغوي يعني الصلة عن طريق اللغة بين المتكلم والسامع، أو بين المرسل والمتلقي.

وإذا كانت للتواصل وسائله المختلفة والمتنوعة، فإن اللغة عامة والصوتية منها خاصة هي أرحب الوسائل مدى وأبعدها مسافة وأبلغها آثراً وأسرعها وصولاً وأكثرها انتشاراً وأسهلها نشراً للأفكار. وقد اعتمد الإعلام في مخاطبة الناس على استخدام أنواع اللغة كلها من صوتية مسموعة ومكتوبة مقروءة، ومصوّرة ملوّنة ومتحركة مشاهدة، ليستثمر جميع أنواعها في تواصله مع المتلقّين.

ونحن نُعنَى باللغة المنطوقة كما نعنى باللغة المكتوبة لأن لكل منهما وظيفة في التواصل الإنساني، فالمكتوبة هي التي يتم بها التواصل مع الأسلاف والماضين الذين لم نعد نسمع أصواتهم، أولئك الذين تركوا لنا إرثهم وثقافتهم وعلومهم وأفكارهم مكتوبة، وأما المنطوقة المحكيّة فنتوخى المهارة فيها لأنها وسيلة تواصلنا مع المعاصرين. ولا يجوز أن نهمل واحدة على حساب الأخرى، فلكل منهما موضعها ولكل منهما أهلها، وإني أعزو بُعد الكثيرين عن الإحساس بالانتماء الفكري والثقافي بل القومي عامة واللغوي خاصة إلى الأمة، أعزوه إلى ضعف وسيلة اتصالهم بتراث أمنهم مما بتَّ نسبهم وجمّد إحساسهم!. وتراث الأمة هو ما أنتجه سلفها من فكر وثقافة بعد تفاعلٍ مع بيئتهم مكاناً، ومع عصرهم زماناً، وتلقّته الأجيال المتتالية وأضافت إليه ما أنتجته واستحدثته من فكر وثقافة، فكان كل ذلك هو إرث الأمة الذي يجسّد شخصيتها ويظهر طابعها المميّز، ويقدم لها الأرض الصلبة التي تقف عليها والتي تبني عليها وتستمدّ منها ثوابتها، وهذا ما يضمن استمرار أجيال الأمة على نسق حضاري واحد. إن التراث ماض بعينك على صنع المستقبل، ينبغي لك أن تعرفه، وأن تتصل به، وألاّ تتحجَّر عنده، بل استلهمه وتجاوزه لتصنع المستقبل، ولا تهجره لئلا تنقطع عن أصلك وجذرك وتاريخك لتجد أنك أصبحت من أمة أخرى غير أمتك!

إن اللغة هي الحبل الذي يشدّك إلى جذرك، ويبقيك في حضن أمتك، ويبقي أمتك قلباً نابضاً في وجدانك، أو وجداناً نابضاً في قلبك.

لا يجوز لأمة حريصة على استمرار حياتها واتصال حلقات تاريخها أن تهمل واحداً من المسارين؛ مسار المهارة في فهم المكتوب، لأنه المسار إلى فهم الماضي والاتصال به، ومسار المهارة في المنطوق، لأنه المسار إلى فهم الحاضر والعيش فيه. وهذا ما يجعلنا لا نقبل اللغة العاميّة مكتوبة حتى لا تصبح في يوم من الأيام حاجباً بين أجيالنا القادمة وبين تراث أمتهم الذي لم تكتب كلمة منه أو فيه بالعاميّة! ولو كتبت لما فهموها لأن لكل عصر عاميّته، ولكل مجتمع عاميّته، ويكفي أمة

العرب ما مرّ في تاريخها من تدمير وتمزيق، ومن تفرقة وتفتيت، ومن انحراف وضلال وفرقة وضياع.

ونحن حين نتطلب المهارة في اللغة المنطوقة الموَّحدة فلأن هذا المستوى من اللغة هو سبيل التواصل بين الأفراد في المجتمع الواحد، وبين الشعوب في العصر الواحد، وبين الأجيال في الأمة الواحدة.

إن اللغة هي أداة التعبير عن حاجات الناس اليومية، وهي الوعاء الذي تنتقل به خبرات الأمم السابقة وعلومها وتجاربها إلى الأمم اللاحقة. وهي المستودع الذي يتراكم فيه الحصاد الفكري والمخزون الحضاري على مدى الدهور، ولذلك كله نريد أن تبقى لنا لغة واحدة النسق عبر الأزمنة والأمكنة، لا تمزّقها العاميّات ولا تفرق بين الناطقين بها. وحسبنا لمعرفة مدى قيمة اللغة أن نتصور كيف كان يكون العالم لو لم تكن ثمة لغة؟! كما يكفي لنعرف خسارة الأمة في تعدّد لغاتها وعاميّاتها أن نتصوّر كيف كنا نكون لو كان لكل قطر عربي لغته المحليّة الخاصة به؟ وكيف لو كانت لغة القطر الواحد تتغير وتتحوّل من عصر إلى عصر؟!

إن المهارة المطلوبة هي مهارة قراءة المكتوب بغية فهمه، والإنشاء على سمته، لنكفل الاستمرار وبقاء الاتصال، وأما المهارة في النطق فالمطلوب منها هي المهارة في اللغة المنطوقة الموحَّدة التي يفهمها العرب كلهم، كما في لغة مقالات الصحف ونشرات الأخبار.

ويخطئ أو يغالط من يدّعي أن العامّة لا تفهم هذه اللغة السهلة الميسَّرة من العربية التي يستعملها المثقفون اليوم في المحاضرات والأحاديث، لأن العامة في جميع بلاد العرب يفهمون ما يصدر عن العواصم العربية من نشرات الأخبار، ولو أذاعت بعضها أخبارها بلهجاتها العاميّة ولغاتها المحليّة لجهل أكثر العرب ما يذاع! فليعِ ذلك أدعياء العروبة والقوميّة من دعاة العاميّة وناشريها في معاجمهم وفي كتبهم وفي إعلامهم!

ولا قيمة للغة إذا لم تحقق تواصلاً إنسانياً في الفكر والشعور، لذلك ينبغي لها أن تكون واحدة موحّدة في الأمة، وهي وسيلة انتقال المعرفة من جيل إلى جيل، أي هي التواصل بين أجيال الأمة عبر العصور، ولولاها لبدأت معرفة كل قوم في كل جيل من الصفر! إنها وسيلة التقارب الإنساني بين الأمم، وسيلة الاتصال في الأمة الواحدة بين الشعوب في العصر الواحد، وبين الأجيال عبر العصور، ووسيلة التواصل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع الواحد، وفي الوطن الواحد، ولا لحمة بين أبناء الوطن الواحد إلا باللغة الواحدة الجامعة لكل أبنائه وطبقاته وأطيافه، مهما اختلفت أعراقها وأديانها وانتماءاتها.

وقد فرّق القدماء بين المهارة في الكتابة والمهارة في الكلام أو النطق، ففي كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة مثلاً باب لتقويم اليد، وهو ما أطلق عليه عند الكثيرين

باب الخطّ أو باب الهجاء ويعنون به الإملاء. وعنده باب آخر هو باب تقويم اللسان، وهو باب يعنى بما يتصل بموضوعات النطق واللهجات.

وإن المهارة في اللغة المنطوقة تتضمن مهارة الاستماع والفهم ومهارة الكلام والإفهام. ولا تتحصل هذه المهارة إلاّ بالسماع والتدريب ثم الممارسة، أما السَّماع فأجيالنا اليوم محرومة منه! وممّن يسمعون؟ من إعلام لا يعلّم، أو معلّم لا يتقن، أو بيئة فاقدة لغتها!

وأين يتدرّبون؟ وساحات التدريب في المدارس والجامعات تهتم بالقواعد النظرية وتعنى بالفكر، وندر فيها الاهتمام باللسان أو التدريب على المحادثة أو الحوار، وأين يمارسون هذا السلوك اللغوي القائم على التواصل بلغة سليمة الأداء واضحة الفكر؟ وقد أوجدنا لكل شيء بيئة أو ساحة تصلح للتدريب عليه، سواء أكان ذلك الشيء سيارة يتدرب على قيادتها، أو كرة يلعب بها أو غير ذلك من ألعاب إلا اللغة فقد تاهت في حياة النشء حتى في ساحاتها الطبيعية في المدارس والجامعات! وهي في أشد الحاجة إلى ساحات للتدريب والممارسة، وللتوجيه والتصحيح والإرشاد، حتى لا تنحرف أو تضلّ، لأننا نريد اللغة سلوكاً واعياً مبصراً لاعادة صمّاء عمياء.

لقد كانت البوادي ساحات تدريب لأبناء العرب، يرسلهم أهلوهم إليها، وكان الأعراب الفصحاء قدوة صالحة يسمعونهم ويقلّدونهم. فإذا عادوا إلى الحواضر سمعوا آيات القرآن وأبيات الشعر.. حتى بلغوا درجة المهارة في سلوك لغوي بلغ الغاية سماعاً وفهماً وتحدّثاً وإفهاماً. ولكن ذلك لم يستمر، بل أصبح التعليم في المدن دروس تلقين واهتماماً بالقواعد النظرية، ثم أصبح الاهتمام منصرفاً فيه إلى الإعراب وما إليه، ونسي الغرض من النحو ومن الإعراب حتى أصبح كثيرون ممن يتقنون الإعراب النحوي عاجزين عن الإعراب عمّا في نفوسهم من خواطر وأفكار بلغة سليمة واضحة اتخذوا النحو والإعراب آلة لها فضيّعوها وظلوا متمسّكين بآلتها!! لقد غرقوا في علوم الآلة وعلوم اللغة ونسوا اللغة نفسها!!

ورحم الله ابن خلدون الذي نعى على معلمي العربية كيف نقلوها من كونها ملكة إلى جعلها صناعة! وكيف تركوا إتقانها في نصوصها وأمثلتها إلى إتقان علوم تقوم على قوانين المنطق والجدل!

ألا يجدر بنا أن نحصي في مدارسنا وجامعاتنا كم ساعة يسمع الطالب عندنا لغة سليمة؟ وكم ساعة يتحدث فيها بلغة سليمة أو يتدرّب عليها؟ وكم مرة يكلَّف كتابة موضوع محدَّد؟ وكم مرة يكون الموضوع متصلاً بحياتنا المعاصرة؟ إن انعدام ذلك أو قلّته هو من أهم أسباب ضعف المتعلّمين في اللغة وفي التعبير وفي التواصل اللغوي .. ومع ذلك نرى النقد يوجّه في أكثر الأحيان إلى النحو ويصبح هجوماً عليه موضوعاً ومنهجاً وتدريساً!! وقد علمنا أن النحو لا يعلّم اللغة ولا يوجدها ولكنه يرمّمها ويصحّحها بعد أن توجد.

ولا إتقان ولا مهارة في اللغة إلا إذا أصبحت عادة غير محتاجة إلى التفكير فيها، وهل يقوم المتحدِّث حين ينطلق لسانه باللغة وبلغته الأم خاصة باستحضار الألفاظ أو المفردات، والتفكير فيما ينبغي أن تكون عليه من حركات الإعراب، ومن ترتيب في الجملة أو التركيب، وهو في الوقت نفسه منصرف بذهنه إلى شرح الفكرة التي يعرضها في حديثة؟

ولا شك أن لكل لغة من اللغات أسلوبها في التواصل، وللعربية كذلك أسلوبها أو أساليبها التي تستعين فيها بالألفاظ والمعاني أو بالشكل والمضمون لإخراج كل فكرة بما يناسبها من أساليب التعبير ليبلغ المعنى ذهن المخاطب في أحسن صورة، وما سمّيت البلاغة في العربية بلاغة إلاّ لأنها تحقق مهمة اللغة التي هي بلوغ المتكلم بفكرته ذهن المخاطب أو أعماقَ نفسه بلوغاً مؤثراً غير مكتف بإسماعه المعنى أو إيصاله إلى أذنه... إنه يريد من وراء اللغة أن يوصل الأثر إلى أعماق النفس، ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ [النساء/٦٣]

وإن المهارة في التواصل تعني أنه لا يصحّ الوقوف في استعمال اللغة عند مجرّد الإفهام أو الإبلاغ كما يقول بعض المتحدّثين، فلقد سمعت غير مرة في ندوات ومحاورات من يقول إن أي مفردة أو لغة بلّغت ما تريد أو عبرّت عن حاجتك فهي تكفيك! وهذا أمر يجب التوقف عنده وبيان الخطأ فيه، وخاصة في لغة كلغتنا العربية التي وصلت العناية بالإبلاغ فيها إلى أن جعلت البلاغة فيها مشتقة من وظيفة اللغة التي هي الإبلاغ... وجعلت وصول المعنى من المتكلم إلى المخاطب في أحسن صورة هو البلاغة. وقد قال أحد بلغاء العرب مرة، وهو العتّابي – إن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، فعلّق الجاحظ على قوله شارحاً ومبيّناً فقال: إنه لم يرد أن كل من أفهمنا حاجته بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقّه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، ونحن فهمنا عن النبطي... بل نحن نفهم عن حمحمة الفرس وصفاء السنّور وعن الحمار والكلب كثيراً من حاجاته. ومن جعل البلاغة هي مجرّد الفهم فقد جعل الخطأ والصواب والإغلاق والإبانة كلّه سواءً وكلّه بياناً!!

وقد لفت البلاغيون العرب النظر إلى وجوب معرفة المتكلم لأقدار المعاني ولأساليب الكلام، وأن يوازن بينها وبين أقدار السامعين أو المخاطبين واختلاف الأحوال والظروف حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات(١) .

وقد جاء في لسان العرب أن البليغ هو الذي يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، وذلك هو الإعراب عما في النفس والبيان عن المراد، وما قيمة اللغة إذا لم تقم بذلك؟! وهل للغة وظيفة أخرى غير الإبلاغ وهو تواصل بين متكلم وسامع؟

إن أفضل صور التواصل هو أن يبلغ المتكلم بما في نفسه نفس المخاطب.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في البيان والتبين ١٣٨/١ وما بعدها.

وهذا ما عبّر عنه أبو هلال العسكري حين ذكر البلاغة فقال: "البلاغة من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها، وبلّغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته. فسمِّيت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه." (٢) ومن أين للجيل العربيّ الناشئ اليوم أن يتقن التواصل بلغة أصبحت بينه وبينها آماد من البعد وكثافة من الحُجُب؟ لقد حجبه عن إتقان لغته اليوم أسباب كثيرة منها:

-الإعراض عن القراءة، وقد شغلته عنها المسلسلات والشابكة (الانترنيت) وكثير من مغريات الحياة المعاصرة.
-الفقر في الثروة اللغوية، والفقر في المحفوظ من نصوص القرآن والأدب والشعر.
-القصور في فهم المسموع والمقروء.
-العجز عن تلخيص ما يسمع أو يقرأ.
-عدم المبالاة باللغة العربية، وعدم الاهتمام بصحّتها أو سلامتها.
-غلبة اللغة العاميّة على ساحات حياتنا اليومية.
-غياب القدوة اللغوية الصالحة في الإعلام، وفي المدارس والجامعات.

وتتلخص هذه الأسباب في عدم تحصيل المهارة في اكتساب اللغة بالممارسة بكوننا فقدنا البيئة التي أكسبت العرب لغتهم وجعلتها سليقة لهم، فنحن نفتقر في بيئتنا المعاصرة إلى لغة صالحة للاقتداء إذا سمعت، ونفتقر إلى مخزون من المحفوظ من الأدب الرفيع الذي يغني محفوظه عن المسموع، فأنَّى لنا مع هذا الفقر الشديد أن يحصّل أبناؤنا سليقة أو أن يمارسوا سلوكاً لغوياً سليماً؟!

لقد غابت القدوة عن المتكلم؛ فلم تعد أذنه تسمع ما يصحّ أو يجمل، ولم تعد في ذاكرته نصوص محفوظة تمدّه أو ترفده أو تغني لغته.

لقد مرّ اكتساب العرب لغتهم عبر تاريخهم بمراحل جديرة بالتأمل:

كانوا **في المرحلة الأولى** يهجرون الحواضر صغاراً وينطلقون للعيش في البوادي فيتنفسون أنظف هواء ويسمعون أفصح لسان.

وكانت **المرحلة الثانية** بعد الاستقرار في الحواضر والمدن مرحلة حفظوا فيها ما وصل إليهم من شعر وقرآن وحديث نبوي وخطب وأمثال، فكان من كل ذلك ذخيرة تمدّ صاحبها بمعين من نماذج لغوية استقرّت في ذاكرته وكانت تزداد غزارة كلما تقدّم بها الزمان، فكان الذين حفظوها ينسجون على منوالها، ويضيفون عليها مما تفيض به قرائحهم... واستمرت هذه المرحلة إلى أواخر العصر العباسي الذي كان المتحدثون فيه يتفاوتون في أساليبهم تفاوت ثقافاتهم وبيئاتهم ودرجة تعلمهم...

(٢) كتاب الصناعتين:٦.

وجاءت **المرحلة الثالثة** التي غلبت فيها عناصر وشعوب وأمم، وبدأ الطابع العربي الفصيح ينحسر، وبدأت طريقة التعلّم والاكتساب اللغوي تنتقل من تعلّم اللغة واكتسابها إلى تعلّم علومها.. فكثرت كتب الشروح والتعليقات والحواشي. وأصبح العلم حدوداً وتعريفات.. لم يعد اكتساب اللغة ممارسة ولا تقليداً للناطق بها، ولم يعد حفظاً لروائع الأدب بقدر ما هو حفظ للحدود والتعريفات والمتون والمختصرات... وأصبحت اللغة نحواً، وأصبح النحو إعراباً.. وضاقت على الناس أبوب الكلام، وجاءت في عصر النهضة العربية **المرحلة الرابعة** فتوزّعت أمتنا بين طرائق منها القديم الذي يتابع طريقة الحفظ للمتون والشعر التعليمي والاهتمام بالنحو وبالإعراب...، ومنها الذي يقلّد ما وصل إليه من طرق تعليمية مستوردة.

ونحن اليوم نعلم الطلاب في المدارس والجامعات علوم اللغة وقواعدها ولا نعلمهم اللغة نفسها ولا كيفية اكتسابها!

لذلك ما زلنا نشكو اليوم مما شكا منه أسلافنا منذ ما يزيد على مئة سنة؛ إننا نشكو من ضعف العربية على ألسن الناس، وهي شكوى قديمة زاد عمرها على قرن ونصف، وسجلتها تقارير رسميّة رفعت إلى المسؤولين في مصر، وأشارت إليها كتب التاريخ الثقافي لذلك العصر(٣)

لقد أصبح الضعف في اللغة العربية على ألسن المتكلمين وأقلام الكتاب قضية اجتماعية ثقافية عامة في البلاد العربية، بل أصبحت كسائر القضايا العربية لم تلبث أن صارت مرضاً مزمناً، وأصبحت كغيرها ذات موسم ترتفع الأصوات فيه بين الحين والحين ثم تخفت وتختفي مع ما يختفي من أمراضنا الاجتماعية تحت أمواج حياتنا ومشكلاتنا وقضايانا الأخرى التي تتجدد ويطوي بعضها بعضاً دون أن ينتهي ملف قضية واحدة منها!! إنها تصبح حلقة في سلسلة أمراضنا العربية المزمنة، أو قضايانا ومشكلاتنا التي تتخذ شكل الندوات والمؤتمرات بل النوبات المرضيّة المتكررة المتجدّدة التي نجترّها سنة بعد سنة في اجتماعات متكررة تختلف أمكنتها وأزمنتها وشعاراتها ولكنها لا تقدّم ولا تؤخر، ولا تتقدَّم ولا تتأخر، وتكون حصيلتها أسفاراً من قرارات أو توصيات تركن على الرفوف بعد أن ينتهي الإعلام الدعائي من إعلانها ووصفها بالانجازات، وتلك صورة من حياتنا العربية النمطية التي تراوح مكانها دون أن تتقدّم بنا خطوة، أو تنهي قضية، أو تحلّ مشكلة! إنها الحياة العربية المعاصرة ذات السلاسل المستغلقة والعقول المحاصرة! لقد وصل تشويه الحياة العربية المعاصرة إلى استبراد مشكلات أمم غير أمتنا، وأمراض شعوب غير شعبنا، يصدّرونها إلينا ونسارع إلى تأليف الجمعيات واللجان. وعقد المؤتمرات والندوات للبحث في أخطارها واقتراح الحلول لها، سواء أكانت في عالم الطفل أم عالم المرأة أم الأسرة أم الأخلاق أم القيم، حتى أصبح ذلك وسيلة من وسائل تقارب الأمم بالعدوى لتصبح جزءاً من العالم وموجة في بحر العولمة!

(٣) كتاب د. عزة عبد الكريم.

والعجيب أن كل تلك الشكوى من ضعف اللغة قادت إلى التركيز على النحو وتعليمه، وركزوا في النحو على الإعراب وتطبيقاته، وقامت في بلاد العرب محاولات بدأت وما زالت إلى يومنا هذا في سبيل تيسير النحو وتجديده، عرفنا منها ما بدأ منذ أيام محمد علي باشا في مصر على أيدي الأفراد واللّجان والجامعات ووزارات المعارف والتربية في البلاد العربية المختلفة... وهي كلها – كما أرى – ليست الدواء الشافي من ضعف اللغة الذي نشكو منه لسبب بسيط هو أن النحو لا يعلم اللغة، وحفظ عشرات المتون النحوية لا يجعل صاحبها كاتباً ولا أديباً ولا خطيباً ولا ماهراً في النطق والكلام!!

لقد أخطأ الدارسون الهدف، فالضعف في اللغة لا يقضي عليه تغيير المصطلحات النحوية، ولا تبسيط الإعراب.. إن اللغة لتقوى تحتاج إلى استخدام اللسان والتدّرب على النطق بها سوّية سليمة، وهي المهارة التي غاب التركيز عليها في كل محاولاتنا وفي مدارسنا وفي جامعاتنا.. فغابت في محافلانا وفي إعلامنا!

إن إتقان اللغة لتكون أداة جيدة للنقل والتواصل في حاجة إلى المهارة في الأداء السليم والتعبير الصحيح شفاهاً وكتابة، وأقول شفاهاً لأنني طالما استمعت إلى متحدّثين من طلبة ومحاضرين ومثقفين كانت مخارج حروفهم تسبب اللّبس في الفهم... لقد أدركت كم أفادنا الذين علّمونا قراءة القرآن صغاراً حين كانوا يحرصون على صفات الحروف ومخارجها مع أننا لم نكن نقرأ قراءة بالتجويد.. وكم أفادنا الذين كانوا يعلّموننا الإصغاء إلى تسجيلات لنصوص من النثر وقصائد من الشعر يقرؤها المتقنون من الأدباء...

ما زلت أذكر أنني كنت منذ أربعين سنة تقريباً لا أنام حتى أسمع من إذاعة دمشق قراءات شعرية يلقيها رجل يجيد القراءة والإلقاء... ثم خلف من بعده خلف أضاعوا مخارج الحروف وأجادوا تمطيط الكلام!

-لقد بحت أصواتنا ونحن نقول إن اللغة ذات غايتين أو ذات موضعين؛ الموضع الأول هو الذي ندرسها فيه لذاتها، وأما الثاني، وهو غايتنا هنا، فهو أنها أداة لإتقان غيرها من العلوم ووسيلة لاكتساب المعرفة.

إن المهارة اللغوية لا يحصّلها المتعلّم إلا إذا كانت اللغة مستعملة في كل ما يسمع في دروس التاريخ والجغرافيا والرياضيات وعلم النفس والفلسفة وسائر المقررات التعليمية. إن للغة موضعين، عُنينا بموضع تعليمها في أقسامها الجامعية نحواً وصرفاً وبلاغة، وأهملنا القيام بموضعها الثاني، وهي فيه وسيلة التعبير العملي، وليست موضع الدرس النظري. يجب أن يكون في واقع تعليمنا أن نغرس في أذهان الطلاب -والمعلمين من قبلهم- أن العربية ليست مقرراً لمعلمي العربية وحدهم، و ليست مادة تعليمية لنفسها، وليس موضعها دروس العربية فقط، ولكنها موضع اهتمام كل المعلمين في كل المقررات، وأن موضعها هو كل الدروس وكل

الأنشطة وكل الساحات وكل الوطن؛ لأنها هي صنوة وعنوان عروبته، وسياج حفظه وصونه .

إن نقل اللغة العربية من كونها مقرراً دراسياً يدرَّس في المدارس والجامعات إلى كونها مقرراً وطنياً نعبّر به عن حياتنا المعاصرة كما عبّرت بها أمتنا عن حضارتها يجعلنا نعيش ويجعلها تعيش معنا، وفي معايشة اللغة حياة لها وحياة لنا. إن تقصيراً مشيناً يلحق اللغة والثقافة، ويلحق الشعور الوطني والقومي حين نجعل اللغة موضع اهتمام معلمي العربية وحدهم، وحين نجعلها مقرّراً دراسياً كأي مقرَّر آخر، وكأي لغة أخرى ندرّسها! لأن الحق أنها موضع اهتمام جميع المعلّمين على اختلاف اختصاصاتهم، بل يجب إن تكون موضع اهتمام جميع المواطنين والمسؤولين في التربية والتعليم والثقافة والإعلام. إنها يجب إن تكون موضع اهتمام الجميع في الحياة الوطنية والقومية والثقافية كلها في الوطن العربي كله. وهنا يبرز دور الإعلام ومؤسساته في نشر العربية السليمة، ويبرز دور التوجيه في وزارات التربية والثقافة في الاهتمام باللغة الفصيحة والتعبير السليم والدعوة إلى ذلك والدعاية له، وتخصيص المسابقات والجوائز لمن يتقن الحديث بالعربية، ولمن يتقن الكتابة، ولمن يتقن الإلقاء نثراً وشعرا...

لقد رأينا الإعلام عند غيرنا يسبق المؤسسات التعليمية في الدروس اللغوية التي يقدّمها للراغبين، ويفوقها قدرة في تنويع الدروس في مستواها وفي طرق عرضها، ولاشك أن الإعلام العربي قادر على إكساب المهارة العامّة في اللغة، تلك التي توجّه إلى المواطنين عامة والى المثقفين من غير المختصين بالعربية خاصة؛ لأنه قادر على أن يكون قدوة ومثالاً للمتحدّثين، وقادر على غرس القيم اللغوية من حبّ للعربية وإعلاء لمنزلتها في نفوس المستمعين عامة والناشئين خاصة، فنحن اليوم في حاجة ماسّة إلى خلق روح تعتزّ بلغة الأمة بعد أن كثر الطاعنون وكثر المشكِّكون وكثر الداعون إلى اللغات الأجنبية والى اللغات واللهجات العاميّة.

ثم إن الإعلام قادر على نشر اللغة بمفرداتها ذات الدلالات الموحدّة، ووحدة الدلالة تحول دون اللَّبس ودون الغموض، وتؤدي إلى وحدة الفكر ووضوحه، ومادامت وظيفة اللغة هي التواصل فإن أهم عناصر اللغة الدلالة لأنها هي التي يحملها اللفظ من فم المتكلّم لتصبح معنًى في ذهن المخاطَب، وشرط هذه الدلالة لتحقق عملها بل لتحقق وظيفة اللغة أن نكون جماعية تعارف عليها المتكلّمون والمخاطَبون، واصطلحوا على وحدة معانيها، ولولا ذلك ضلّت الأفهام وتعدَّدت بتعدّد المعاني واختلاف الدلالات. وأما أولئك الذين يزعمون أن المفردات اللغوية ملك لهم يتصرّفون في استعمالها ويقسرونها على دلالات ليست لها لا حقيقة ولا مجازاً، فهم يخسرون التواصل لأنهم أضاعوا وظيفة اللغة.. وليس الإبداع أن تكون لكل فرد لغته، ولكنه في استثمار دلالات توحي بها أو تدل عليها أو تشير إليها المفردات التي اختاروها وتركوا لما في السياق من قرائن أن تدلّ على معانيها وإيحاءاتها. وأما عامّة الأدباء والكتاب والمتحدّثون فلابدّ أن تكون لمفردات لغتهم دلالات استقرّت في

أعماق الوعي الاجتماعي الذي يدركه الناس عامّة. وهم قادرون بعد ذلك أن يستثمروا دلالاتها البلاغية وإيحاءاتها البعيدة التي تدركها النخبة المثقفة من أهل اللغة . وبذلك يكون للنصّ الأدبي مستويات دلالية متعدّدة بتعدّد مستويات المخاطبين أو القرّاء.

أما نقل الكلمة من دلالة إلى دلالة بشكل إفرادي حرّ يخالف ما تفهمه الجماعة منها وما تعارفت عليه _كما في بعض النصوص التي تنشر اليوم _ فهو تمرّد أرعن يمزّق العرف الاجتماعي، ويشتت الفهم ويجعل لكل متحدث يدّعي النبوغ لغة لا يفهمها سواه، وهو باب يفتح باب الادّعاء من القائلين، وباب المجاملة والنفاق أو المحاباة من الناقدين.

إن الدلالات غير المتعارف عليها تؤدي إلى لغة تفقد التواصل، وتحرم اللغة من وظيفتها التي وجدت أصلاً لتحقيقها. إن اللغة الفردية يمكن أن يحدّث الإنسان بها نفسه! ولو أنه حبسها في نفسه ومنعها عن الآذان لاستراح وأراح. ولا شك أن للإعلام دوراً عظيماً في نشر اللغة الجماعية ذات الدلالات الواحدة والمعاني المشتركة بين أفراد الجماعة وأفراد المجتمع وأفراد الأمة.

والإعلام ينبغي أن يختار المتحدثين في وسائله المختلفة من بين الذين يصلحون قدوة في ألسنتهم وفي لغتهم، في حديثهم وفي قراءتهم وفي إلقائهم؛ لأن اللغة لا تتقن إلا بحسن الإصغاء إلى الكلام الحسن والنطق الجيّد، وهل اكتسب أبناء العرب قديماً لغتهم إلا بحسن الإصغاء وطول السماع من أصحابها في بواديهم.

إن الذين ذهب إليهم أبناء العرب قديماً مازالوا أحياء في نصوصهم وفي أدبهم وفي شعرهم، فينبغي أن نستدعيهم ليطلّوا علينا في بيوتنا من وسائل الإعلام، وأن نقصدهم وأن ينقلهم إلينا أمثالهم من المتحدّثين.

إن الاستماع إلى متحدّثين يحسنون العربية ويؤدونها سليمة في النطق والأداء أجدى من الاستماع إلى درس نظري في قواعد اللغة، وإذا كانت المهارة في التواصل اللغوي أن نحسن استعمال اللغة فإن النحو لا يمنح تلك المهارة لأنه يمنحك القاعدة ولكنه لا يكسبك أسلوب العرب في كلامهم، والاكتساب الذي نريده هو الذي يجعل ألسنتنا كألسنتهم تنطق اللغة ولا ينصرف تفكيرهم إلى قواعدها، إننا نريد اكتساب العادة اللغوية المعروفة عندهم بالسليقة.

إن الذي يتعلّم قيادة السيارة نظرياً يصبح ذا معرفة بها، ولكنه لا يستطيع القيادة فعلاً، على حين أنه لو مارس القيادة عملياً لاستطاع أن يقود السيارة فعلاً دون أن يكون على علمٍ نظريّ بآليّتها، وهكذا يكون الفرق بين من يتعلّم صناعة النحو ومن يمارس اللغة اكتساباً.

إن مهارة التواصل يمكن أن تحصّل في دروس الاستظهار أو المحفوظات، وفي دروس التعبير والمحادثة والإنشاء، وفي دروس المطالعة والنصوص، وفي كل

درس يطلب فيه من المتعلّم أن يتحدّث أو يعبّر نطقاً أو كتابة. إن كل تعبير مهما يكن شكله أو طريقته هو لغة، وهو وسيلة اتصال، ولا شك أن أبلغ اللغات في التواصل ما كانت منظومة بالحروف أو كانت مكتوبة، وكانت مما تعارف عليه المتواصون في مفرداتها ودلالاتها وسائر أحوالها. وإذا كان البحث النظري الذي يتوخىّ العلم والتعمّق فيه، ويتوخى الإبداع ألصق بأقسام اللغة العربية في الجامعات لأنها تعدّ المتخصصين، فإن الجانب التطبيقي والمران العلمي يجب أن يكون الهدف العام لجميع الطلاب في جميع الاختصاصات. وما دام السماع هو الذي يعلّم اللغة، ويرفده حفظ الجيّد من نصوصها، ثم تكون الممارسة العلمية للغة تدريباً يزداد مع الأيام، فلابدّ أن يكون ذلك كله سابقاً للتعليم النظري للنحو والصرف، لأننا بذلك نكون قد علمنا الطلاب قواعد لغة سبق لهم أن عرفوها ومارسوها فيما حفظوه من نصوصها وفيما استعملوه منها، على حين أننا الآن نعلّم في مدارسنا وجامعاتنا قواعد لغة لا يستعملونها في حياهم وليست عندهم ثروة من نصوصها.. ونعلّمهم قواعد على شواهد متقطعة منزوعة انتزاعاً تحت قسر القاعدة النحوية ولا صلة لها بحياتهم!

إن اللغة ينبغي أن تكون لصيقة بالحياة، وأن تكون صوتاً للفكر، وهي ابنته وصورته المعبّرة عنه، فإذا ساءت أو انحرفت أعطت عنه صورة مشوّهة، ولم تستطع التعبير عن الحياة فضاع الفهم وساء التواصل.

ولتبقى اللغة ابنة الحياة، فاعلةً في حياتنا، يحسن أن يكون في الخطط التدريسية مجال يتيح الفرصة لطلابنا أن يستعملوا ما تعلّموه نظرياً في ساحات التطبيق العملي، وأن نجعلهم يعيشون في جوّ عامّ – داخل المدرسة أو الجامعة وخارجها – يحبّ العربية ويقدّرها ويعتزّ بها ويعرف مكانتها وآثرها في حياة الأفراد والجماعات من الناحيتين الشخصية والقومية. وأن يكون في مناهجنا ما يكفل للغة العربية وحدتها وتكامل علومها، وأن نتجنّب كل ما يؤدي إلى تشتّت المعارف اللغوية وإضعافها. وإذا كان علماء اللغة المتحدثون يخالفون القدماء ويرون أن ثنائية اللغة لا تضعفها، أي أن تعليم لغتين كالفرنسية والإنكليزية معاً لا يضعف إحداهما، فإنهم يرون أن ازدواجية اللغة هي التي تضعفها، وهم يعنون بازدواجية اللغة تداخل اللغتين، كتداخل الفصيحة والعامية واختلاطهما، لأن هذا الاختلاط يؤدي إلى العدوى والتأثير والخلل في قواعد الفصيحة وصرفها وأسلوب تعبيرها، فكيف إذا كان هذا التأثير مختلفاً من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد... فالفصيحة واحدة في الأقطار العربية كلها، والعاميّات مختلفة لكل قطر بل لكل بلد عاميّته؟! لذلك كان المعنيّون بالعربية يوجبون بقاء العربية المكتوبة واحدة موحَّدة في الوطن العربي كلّه وبقاء العاميّة المحكيّة غير مكتوبة.

إن ما يسمّى اليوم باللغة الفصيحة أو المعاصرة هي اللغة الواصلة بين الأقطار العربية وهي لغة الإذاعات والفضائيات العربية، إنها عربية يغلب عليها اختفاء الحركات الإعرابية، ولا تخلو من الضعف والحركة أحياناً، ليست فصيحة تماماً وليست عاميّة، إنها لغة متوسطة أقرب إلى الفصيحة. وكثيراً ما يدعو عجز

العاجزين والعاجزات عن التحدّث بالفصيحة إلى القول إن العامّة لا تفهم الفصيحة! وهذه فرية أو مغالطة يردّها الواقع فنظراً لما لهذه اللغة الواحدة الفصيحة من الأثر والانتشار نرى الإذاعات الأجنبية تذيع بها لا بالعامية، لأن القائمين على تلك الإذاعات يريدون التواصل مع العرب كلّهم.. ولعلّ من يدّعي عجز العامة عن الفهم الفصيح مصاب بعاميّة الفهم مع عاميّة اللسان.

وإن الحرص على أن نبقى في بحثنا أقرب إلى التخطيط العملي منا إلى الحديث النظري يدعو إلى أن نعدّد ما ينبغي القيام به لتهيئة تواصل لغوي يتم بسلامة ومهارة:

١- يجب النص في كل مناسبة على أن الاهتمام باللغة ينبغي أن يكون هدفاً صريحاً واضحاً في كل موضع تستعمل فيه اللغة العربية، وهو اهتمام يشمل الحروف بأصواتها، والمفردات في صحة دلالاتها، والتعبير في سلامة صياغته.

٢- استثمار المراحل العمرية المبكرة لتعليم اللغة الفصيحة لأطفالنا، وهي مراحل كثيراً ما تستغلها المدارس الأجنبية الخاصة التي تأخذ نصيب العربية من عقل الطفل ونفسه واهتمامه وولائه حتى إذا بلغ ما بعد ذلك من العمر كانت الفرصة الغالية قد ضاعت منه ومن أمته.

ولو كان التواصل يتم بالفصيحة مع الأطفال لنشؤوا يعرفونها ويألفونها ولأتقنوا الحديث بها قبل أن يتقنه الذين نعلّمهم نحوها وصرفها في الجامعات!

٣- جعل البرامج الإعلامية الموجّهة إلى الأطفال باللغة الفصيحة سواء أكانت تعليمية أو توجيهية أو ترفيهية، وسواء أكانت مسموعة أو مرئية.

٤- تنظيف البيئة اللغوية من اللغات الدخيلة على الألسنة ما أمكن، وفي اللافتات في الأسواق والشوارع والفنادق والمطاعم على ألاّ يفهم من ذلك عدم استعمال اللغة الأجنبية لمن أراد عند الحاجة.

٥- إيجاد ساحات مكانية وساعات زمنية للتدريب على المحادثة والإكثار من المحاورات والمناظرات والإلقاء ولاسيما في المدارس والجامعات.

٦- تخزين عدد كبير من النصوص الأدبية واللغوية في ذاكرة المتعلّمين ليملكوا ثروة لغوية يستعينون بها ويستعيضون بها عن سماع الناطقين بها سليقة!

٧- يجب أن نقتحم بلغتنا ميادين الحياة المعاصرة في مجال المال والاقتصاد والتأمين والسياسة، وأن ندّرب المتحدثين على استعمال المصطلحات العربية في تلك الموضوعات، والتعبير عنها نطقاً وكتابة بطلاقة وسهولة.

٨- من الجدير بالذكر أننا كنا قديماً نتقدم إلى امتحانات شفهية في كل امتحاناتنا حتى امتحان الشهادة الابتدائية، وكنا نستعدّ لهذه الامتحانات في الجامعة لأن الذي لا ينجح فيها لا يحق له دخول الامتحان التحريري، وقد ألغي كل ذلك، وأصبحت اللغة العربية مقرراً دراسياً كأي لغة أجنبية تدريساً وامتحاناً!! ولم يعد للعربية صلة ببقية المقررات غير اللغوية، وشتان ما بين التواصل بلغة مستعملة

مألوفة لا تتطلب جهداً في الفهم حين تُسمع أو تقرأ، ولا جهداً في التعبير حين يُتحدَّث بها أو تكتب، وبين لغة لا يتَّم الفهم والتفاهم بها إلا بعد جهد في النقل والترجمة.

إن التواصل الحقيقي هو التواصل الثقافي والوجداني الذي ينطلق من اللسان ولكنه منبعث من الفكر والقلب والنفس، وليس مجرد تواصل لساني. إنه تواصل العلاقات الإنسانية الذي ينقل الأفكار ويترجم العواطف ويعكس الوجدان والأحاسيس، وهذا لا يكون إلا بلغة واحدة مشتركة واضحة يفهمها المتواصلون من مرسلين ومتلقّين أو من متكلمين وسامعين أو من كاتبين وقارئين. وما من عمل تحتاج فيه إلى غيرك إلا وأنت محتاج فيه إلى مهارة لغوية شفوية أو كتابية.

وإن المهارة في اللغة صورة من صور الاهتمام بالفكر نفسه لأنها صورته وأداته ووعاؤه وترجمانه... وليست اللغة أصلاً مطلوبة للتواصل إلا من أجله، ونحن حين نطلب المهارة في التواصل اللغوي فلأن اللغة لا تصل نفسها وإنما توصل الفكر الذي تحمله وتعبّر عنه. وبقدر ما تكون اللغة **شفّافة** في تعبيرها عن الفكر، دقيقة في نقله، تكون واضحة وضوحه مهيِّئة لاتصال لا يترك مجالاً للَبس أو غموض، ولا يترك مجالاً لفهم غير المعنى المراد، ولا يحتمل أكثر من تفسير واحد للتعبير الواحد، إنها تصبح كلغة العلم في دلالة اللفظ على معنى لا يتعدّاه. واللغة قادرة على أن تصبح في ميادين الأدب وغيره ذات أساليب تكون فيها ميدان احتمالات وحمّالة معان ودلالات! وأن تصبح قادرة على جعل المتلقّي في بؤرة المعنى الذي تجمّعت فيه معان كثيرةٌ من دلالة لغوية وعرف اجتماعي ومعنى إيماني جاء إيحاءً ولم يأت تصريحاً، ومعنى رمزي جاء إشارة ولم يأت عبارة، وتلك هي لغة التواصل الأدبي.

ولم تكن الصلة بين المتكلم والمقام الذي يتكلم فيه بعيدة عن الاعتبار في فكر علماء المعاني، بل لقد أدخلوا خضوع الكلام وأسلوب صياغته للظروف في تعريفهم علم المعاني حين قالوا إنه العلم الذي يبحث في أسلوب صياغة الكلام لإصابة المعنى على وفق مقتضى الحال. وبهذا فقد أحكموا الصلة بين المقال والحال. وإذا كان المقال من شأن المتكلم فإن مما لا شك فيه أن المتلقي أو المخاطب يشكل جزءاً من الحال. ويظهر ذلك حين جعلوا الخبر ابتدائياً وطلبياً وإنكارياً وكان تقسيمهم هذا مشتقاً أو مستمدّاً من حالة المخاطب.

ولم يغفل الإمام الجرجاني – وهو من أبرز علماء المعاني – تلك الصلة بين الكلام الذي يمثّل المتكلّم بأسلوبه أو صياغته أو نظمه وبين المقام أو الحال، والمتكلّم جزء من هذا المقام أو الحال. بل لم تكن عملية اختيار الأديب أو المتكلّم لأسلوبه وربطها برغبته في الإبلاغ أو غايته من التواصل غائبة من معالجة الكتاب والنقّاد الذين عَنوا بالحديث عن "الأسلوب" ولقد رأوا أن اختيار المتكلم أو الأديب للألفاظ التي يعبّر بها، وللترتيب الذي يوردها فيه، وللصور التي ينتقيها، ولغير ذلك من مكوّنات الكلام والموقف الخطابي خاضع لما يراه مناسباً أو ملائماً لموضوع كلامه ولمناسبة قوله... إنهم عبّروا عن ذلك كله بقولهم "لكل مقام مقال".

ولما كان المقصود بالكلام هو المخاطب وليس المتكلم أي هو المتلقّي وليس المنشئ فكلّما كان المتكلّم أعلم بفكر المخاطب ونفسه وذوقه كان أقدر على الوصول إليه أو إبلاغه أو التواصل معه. وكلما كان أعلم باللغة التي يتكلم بها وأكثر مخزوناً أو ثروة من ألفاظها، وأوسع اطلاعاً على أساليبها نحواً وصرفاً وبلاغة وتركيباً كان أقدر على استثمارها وتطويعها لتحقيق غرضه وتواصله... وغير خافٍ أن هذا كله يجب أن يتم تحت سقف اللغة، وعلى وفق أصولها وقواعدها، ليتم الفهم والإفهام إذ لو أبدع المتكلم أسلوباً غير مألوف، أو استعمل لفظاً غير معروف، لقلّ الفهم وضاع الغرض وتاه المخاطب. ولذلك فقد كنا ندعو دوماً أن يكون الإبداع في إطار الأصول وإلاّ كان شذوذاً يخاطب المرء نفسه وتضيع فيه اللغة غايتها من الإفهام والتواصل. ونحن نستطيع أن نقول مطمئنين إلى صحة حكمنا وصدق قولنا إن اللغة العربية – للّذي يتقنها – يمكن أن تكفل التواصل الحميد والأثر البليغ والنطق الجميل لأنها لغة تواصل وبلاغة وجمال.

من أهم ما ينبغي أن يلاحظ المتكلم أن التواصل اللغوي ذو ثلاثة أركان بأولها المتكلم نفسه، وثانيها كلامه أو لغته وثالثها المخاطب أو المتلقي وهو المقصود بالكلام أو الخطاب.

ولذلك فلم يكن عجيباً أن يجعل العرب للمتلقي تلك المكانة الرفيعة في لغتهم حين جعلوا بلاغتها قائمة على مراعاة حاله، وجعلوا أرفع الكلام وأبلغه ما ناسب الحال فكان لكل مقام مقال، وكان خطاب الناس على قدر عقولهم. إن التواصل يقتضي أن تعتمد على لغة يعرف المخاطب كما يعرف المتكلم منها ألفاظها ومعانيها وقواعدها وإيحاءاتها وما ترمز إليه... وكلما كان المرسل والمتلقي أو المتكلم والمخاطب على درجة واحدة من الثقافة اللغوية كان التواصل أشدّ وأسرع وأوثق وأبلغ.

لذلك رأينا في تراثنا الأدبي مواقف كان لها من التواصل حدّ بلغ ما لم يبلغه غير اللسان الذي استطاع صاحبه أن يعرف نفس المخاطب ومشاعرها، ويقدر ردّة فعله حين يسمع ما يسمع، فاستثمر من اللغة أساليب بلاغتها، ومن نفس المخاطب مشاعرها، فكان التواصل وأصلاً أبعد ما يمكن أن يصل إليه، وكانت اللغة بالغة ببلاغتها أعمق ما تبلغ وتؤثر.

وهذه أمثلة تدلّ على صدق ما نقوله وصحة ما نحكم به وندعو إليه.

= صديقان ربطت بينهما صداقة ومحبة، ثم حلّ بينهما خلاف ونزغ الشيطان بينهما فحوّل الصداقة خصومة، وأحلّ الجفاء والخصام محلّ المودّة والوئام.

تلاقيا ذات يوم في حلبة الأيام وصراع الحياة، وسنحت لأحدهما فرصة يقضي فيها على صاحب الأمس وخصم اليوم! فأعدّ العدّة للقضاء عليه، وسدّد سهم المصيبة

إليه، ولكن ستارة من ذكريات الأمس عرضت، طيفاً من أطياف المودّات السابقة عرض، فتوقّف عن إطلاق السهم على صديقه وخصمه وقال:

إذا خانني خلّ قديم وعقّني وفوَّقت يوماً في مقاتله سهمي

تعرّض طيف الودّ بيني وبينه فكسّرت سهمي وانثنيت ولم أرمِ

ألم تصل فكرة هذين البيتين إلينا، وتبلغْ لغتها من نفوسنا ما بلغته من نفس صاحبها ساعة قالها؟! ألا نرى أن صورة طيف الودّ بلغت من نفس الصديق العاقّ أكثر مما كان سيصيبه من السهم لو أطلق؟!

= كم تكون اللغة رائعة حين يملك ناصيتها أديب مقتدر يستثمر معرفته ومعرفة المخاطب بل معرفة المتكلمين بها لمعاني مفرداتها، فيختار مفردة منها ويفاجئنا بها في غير سياقها الذي نعرف، ويبلغ منّا بها ما لم تبلغ هي نفسها في مكانها الأصلي وسياقها الحقيقي. مثال ذلك أننا نعرف أن الثكل هو فقد الولد، وقد مرّت بنا في وصفه وبيان آثاره وآلامه في نفوس الثكالى أبيات وقصائد، ولكن شاعراً تحدّث عن الثُكل الذي هو خيبة الأمل أو فقد الرجاء في صديق كان يعدّه عوناً له في ساعة الضيق وملاذاً يلجأ إليه عند الحاجة فإذا هو يتخلّى عنه!

قال:

أخوك الذي لا ينقض النأيُ عهدَه (أي لا يغيّره البعد)

ولا عند صرف الدهر يَزوَرّ جانبُه.

وليس الذي يلقاك بالبِشر والرِضى

وإنْ غبت عنه لسّـَعتك عقاربه.

وما الثكل إلا حسنُ ظنِ بصاحبٍ

خذولٍ إذا ما الدهر نابت نوائبه!

أجل، إن الثكل هو أن ينقطع رجاؤك ويموت أملك في صديق كنت تعدّه عوناً على صروف الدهر ونوائب الزمان.

-حين تغلي الصدور بمراجل الأحقاد، وتمتلئ النفوس بالغضب، ويصبح طلب الثأر كرامة وعزّة واستحواذاً على النفوس... تضيع علاقات القربى وصلات الجوار، وتقع الواقعة وتسفك الدماء.. فإذا هدأت النفوس أو كادت، وسكت عنها الغضب أو برد الثأر، هيمن على النفوس من الأسف والندم والحزن أضعاف ما كان فيها من حقد وغضب! وسال من دموع الفاقدين مثل ما سال من دماء المفقودين وأكثر مرارة وحرارة وحرقة.

كذلك هو شأن القتال بين أهل الجوار وذوي القربى:

تقتلّ من وترٍ (ثأر) أعز نفوسها / عليها بأيدٍ ما تكاد تطعها
شواجر أرماح تقطع بينها / شواجر أرحامٍ ملوم قطوعها
إذا احتربت يوماً فغاضت دماؤها / تذكّرت القربى ففاضت دموعها

أيّ لغة تلك التي استطاع الشاعر أن يتواصل بها مع سامعيه فإذا هم أمام صورة الأرحام التي كانت القربات تجمعها كأغصان الشجرة الواحدة ما دامت الرماح متباعدة، فلما تقاربت الأرماح واشتجرت تقطعت تلك الصلات وتشتت تلك الأرحام.. وأيّ لغة تلك التي ترسم أمامك دموع القاتل تفيض حزناً على دماء القتيل؟!

-وهذه مفارد من لغة يبلغ معناها الفؤاد لحظة تبلغ ألفاظها الآذن، لا تحتاج في بيان التواصل إلى تعليق:

= لكل فتى صبوة:

قالت رأيتك مجنوناً، فقلت لها: / إن الشباب جنون بُرْؤه الكبَرُ

(العُتبي ٢٢٨ هـ)

= لا حياة للغة رديئة ولو صغتها شعراً:

يموت رديء الشعر من قبل أهله / وجيّده يبقى وإن مات قائله

(دعبل ٢٤٦هـ)

= حين نرى الدول العربية تشتري الأسلحة بالمليارات، ثم نرى أعداءها تنتقص أرضها، وتفتّت دولها، تقسّم أوطانها يوماً بعد يوم، ومَن لم تنتقص أرضه تنتقص كرامته في موقف بعد موقف، فهل نستطيع التعبير عن كل ذلك بمثل هذه الكلمات البسيطة التي قال ناظمها:

رأيتكم تُبْدون للحرب عُدَّةً / ولا يمنع الأسلاب منكم مُقاتلُ!!

= ولا يذهبن الظن إلى أن يد الشعر وحدها هي التي تملك مثل هذه الوسائل في التواصل، بل إن في لغة النثر آيات معجبات تملك من البلاغة والخفة ما يملكه الشعر، وتبلغ من الأثر في النفوس أبلغ مما تبلغه السهام في الأجسام؛ من ذلك قول أحدهم عن رأي سمعه: هذا رأي أعور. وحسبي بنقله وصفاً وتعليقاً.

= ومن ذلك قول أحدهم لمتكلّم سمج وغلظ كلامه:

لمثل كلامك رزق الصمت المحبّة!

= ومن هذه المختصرات الرائعة المعبّرة: الغَنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة!

= ومنها في تصوير الإسراع نحو النهاية: نَفَس المرء خُطاه إلى أجله!